١٠ - مناهج الإصلاح (١)

١٧/ ٧/ ١٤١٩هـ

إنَّ الحَمْدَ لِله... أَمَّا بَعْدُ:

فَمَعشَرَ المُسلِمينَ:

لَقَد كانَت حالُ النَّاسِ فِي الجاهِلِيَّةِ حالاً تَجتَمِعُ فِيها المُتَناقِضاتُ والمُضحِكاتُ والمُبكِياتُ.

كانَتْ مُجتَمَعاتُهُم تَرتَدِي ثِيابَ الفَوضَى الخُلُقِيَّةِ والاجتِماعِيَّةِ، كانَ الظُّلمُ قَدِ استَوَى عَلى سُوقِهِ، وكانَت عِبادةُ الأَشجارِ والأَحجارِ شِعاراً لِكُلِّ قَبيلَةٍ، فَقَبيلةٌ تَعبُدُ حَجَراً، وقَبيلَةٌ تَعبُدُ شَجَراً.

كَانَت سُوقُ الرِّبا رائِجَةً، وكانَت الخَمرُ سَيِّدَةَ مَجالِسِهِم، وهَكذا كانَت حَياتُهُم.. ظُلُماتٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

ومَعَ هَذا اللَّيلِ البَهيمِ، بَدَأَ فِي الأُفُقِ صُبحٌ يَتَنَفَّسُ، وأَذِنَ اُلله لِهذِهِ الظُّلُماتِ أَن تَنقَشِعَ، فَبَعَثَ اُلله مُحمَّداً ﷺ، فَأَحيا بِهِ القُلوبَ، وأَسمَعَ بِهِ الآذانَ، وفَتَحَ بِهِ البَصائِرَ والأَبصارَ.

فَتَهَذَّبَت أَنفُسٌ وَهَوت أَفئِدَةٌ إِلى بارِئِها.

قامَ النَّبِيُّ ﷺ بِرِسالَةِ رَبِّهِ خَيرَ قِيامٍ، فَبَلَّغَ الرِّسالَةَ، وَأَدَّى الأَمانَةَ، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجاهَدَ فِي اِلله حَقَّ جِهادِهِ، فَأُوذِيَ فِي سَبيلِ ذَلِكَ أَعظَمَ إيذاءٍ، فَقالُوا عَنهُ: ساحِرٌ، وتَارةً: شاعِرٌ، وتَارةً: مَجنُونٌ، وتَارةً: كاهِنٌ. آذَوهُ وَضَرَبوهُ وأَخرَجُوهُ، ومَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَم يَفتُرْ عَزمُهُ، ولَم تُكسَرْ لَهُ قَناةٌ، بَل زادَهُ ذَلِكَ صَبراً وعَزيمةً.

قَيَّضَ اُلله لَهُ أَصحاباً بَررَةً، أُودُوا وَعُذِّبوا، بَل قُتِلَ بَعضُهُم، قامَت تِلكَ الثُّلَّةُ المُبارَكَةُ تُدافِعُ عَن نَبِيِّها، فَفَدَوهُ بِآبائِهِم وأُمَّهاتِهِم، تَرَكُوا أَموالَهُم وأَوطانَهُم فِي سَبِيلِ نُصرَتِهِ، وَلاَقُوا فِي سَبيلِ ذَلِكَ المَصاعِبَ والمَتاعِبَ، ومَعَ هَذا كُلِّهِ ما زادَهُم إِلاَّ إِيماناً وتَسلِيماً.

كانُوا خَيرَ أَصحابٍ لِخَيرِ نَبِيٍّ، زَكَّاهُم رَبُّهُم، وتَوَعَّدَ شانِئَهُم وَلامِزَهُم. فَرَضِيَ اُلله عَنهُم ورَضُوا عَنهُ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَلَمَّا ماتَ النَّبِيُّ ﷺ قامَ الخُلَفاءُ الرَّاشِدونَ رَضِيَ اُلله تَعَالَى عَنهُم بعدَ نَبِيِّهِم خَيرَ قِيامٍ، فَحافَظُوا عَلى دَولةِ الإِسْلامَ، وزَادُوا فِي تَوسِيعِ رُقعَتِها، وتَوطِيدِ دَعائِمِها، فَهابَتهُم أُمَمُ الشَّرقِ والغَربِ، دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اِلله أَفواجاً، واتَّسَعَ رِداءُ الإِسْلامِ، فَعَمَّ بِظِلالِهِ أرجاءَ كَثِيرَةً مِنَ المَعمورَةِ، وكانَتِ القُرونُ الثلاثَةُ الأُولَى هِيَ خَيرَ قُرُونِ الإِسْلامِ وأَفضَلَها، وكانَ صَدرُ الإِسْلامِ العَصرَ الذَّهَبِيَّ لِلإِسْلامِ وَالمُسلِمينَ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَلَمَّا كانَ التَّمَسُّكُ بِالإِسلامِ هُوَ الطَّرِيقَ إِلى الظَّفَرِ والفَوزِ فِي هَذِهِ الحَياةِ؛ كَما قَالَ ﷺ: «**تَرَكتُ فِيكُم شَيئَينِ لَن تَضِلُّوا بَعدَهُما: كِتابَ اِلله وسُنَّتِي، ولَن يَتَفَرَّقا حَتَّى يَرِدا عَلى الحَوضِ**» أَخرَجَهُ الحاكِمُ عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اُلله تَعَالَى عَنه[1].

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

لَمَّا كانَ الأَمرُ كَذلِكَ، كانَت عِزَّةُ المُسلِمينَ أَو ذِلَّتُهُم خاضِعَةً لِمعيارِ تَمَسُّكِهِم بِتَعالِيمِ دِينِهِم.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

(١) رواه الحاكم (١/ ٩٣).

ولَمَّا كانَ الصِّراعُ بَينَ الحَقِّ والبَاطِلِ قائِماً عَلى قَدَمٍ وساقٍ، أَصابَ أُمَّةَ الإِسْلامِ مِن جَرَّاءِ ذَلِكَ نَوازِلُ عَظيمةٌ، ثُمَّ ما لَبِثَت أَنِ استَعادَت مَجدَها أَو بَعضَ مَجدِها، ثُمَّ عَصَفَت بِها نَوازِلُ أُخرى.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وكانَ مِن أَعظَمِ النَّوازِلِ التِي حَلَّت بِأُمَّةِ الإِسْلامِ، وكانَت سَبَباً -بَل كانَت باباً مُشْرَعاً- لِوُلوجِ الضَّعفِ وَالوَهَنِ فِي قَلبِ المُجتَمَعِ الإِسْلامِيِّ: تِلكَ الأُمورُ المُحدَثَةُ البِدعِيَّةُ فِي العَقائِدِ والعِباداتِ، تِلك الضَّلالاتُ المُتَنَوِّعَةُ التِي شَوَّهَت نَقاءَ الإِسْلامِ وصَفاءَهُ، فَأَضرِحَةٌ تُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ تَعَالَى، يُطافُ حَولَها، ويُتَمَسَّحُ بِجُدرانِها، ودِماءٌ تُراقُ لِغَيرِ وَجهِ اللهِ، ونُذورٌ لِغيرِ اللهِ، وتَمائِمُ شِركِيَّةٌ، وحَلفٌ بِغَيرِ اللهِ، ومَوالِدُ بِدعِيَّةٌ، وأَذكارٌ ما أَنزَلَ اللهُ بِها مِن سُلطانٍ.

وَأَمَّا السَّحَرَةُ والكَهَنَةُ والعَرَّافُونَ، فَسُوقُهُم رائِجَةٌ، وبِضاعَتُهُم نافِقَةٌ.

وَلَم يَقِفِ الأَمرُ عِندَ هَذا الحَدِّ، بَل خاضَ خائِضونَ فِي أَسماءِ اللهِ تَعَالَى وصِفاتِهِ، فَحَرَّفُوا وأَلحَدُوا، وَأَوَّلُوا واستَحسَنوا، فَكانَت عَقائِدُهُم تابِعةً لِعُقولِهِم، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا كَثيراً بِعُقولِهِم المُجَرَّدَةِ عَنِ اتِّباعِ النُّصوصِ.

قَالَ الإِمامُ السَّجزِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وَلاَ خِلاَفَ بينَ المُسلِمينَ فِي أَنَّ كِتابَ اللهِ لاَ يَجوزُ رَدُّهُ بِالعَقلِ، بَلِ العَقلُ دَلَّ عَلى وُجوبِ قَبولِهِ والائتِمامِ بِهِ، وكَذلِكَ قَولُ الرَّسُولِ ﷺ، إِذا ثَبَتَ عَنهُ لاَ يَجوزُ رَدُّهُ. وأَنَّ الواجِبَ رَدُّ كُلِّ مَا خالَفَهُما أَو أَحَدَهُما)[1] اهـ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

(١) رسالة السَّجزِي إلى أهل زبيد (ص١٠٠).

وَالنَّاظِرُ فِي كَثِيرٍ مِن مُجتَمَعاتِ المُسلِمينَ، يَرى فِيها أَثَرَ البُعدِ عَنِ التَّمَسُّكِ بِالنُّصُوصِ الشَّرعِيَّةِ، فَقَد غابَت كَثيرٌ مِن مَعالِمِ السُّنَنِ، وظَهَرَت وانتَشَرَت رائِحَةُ البِدَعِ النَّتِنَةِ، فَكَثيرٌ فِي بِلادِ المُسلِمينَ تِلكَ المَساجِدُ التِي تَحتَضِنُ بَينَ جَنَباتِها أَضرِحَةً يُتَحَرَّى حَولَها إجابَةُ الدُّعاءِ، بَل يَجتَهِدُ بعضُهُم فِي شَدِّ الرِّحالِ إلَيها، يَحتارُ الزَّائِرُ لِبَعضِ بِلادِ المُسلِمينَ فِي العُثورِ عَلَى مَسجِدٍ يَخلُو مِن ضَرِيحٍ أَو مِن أَلوانِ البِدَعِ. فَلاَ حَولَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ، وإنَّا لِلهِ وإنَّا إلَيهِ راجِعُونَ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

ولَمَّا كانَ قِيامُ البِدَعِ مَرهُوناً بِإماتَةِ السُّنَنِ، كانَت رايَةُ البِدَعِ بِقَدرِ ارتِفاعِها تَزيدُ فِي وَهَنِ رايَةِ السُّنَّةِ، قالَ الإمامُ البَربَهارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (وَاعلَم أَنَّ النَّاسَ لَم يَبتَدِعُوا بِدعَةً قَطُّ حَتَّى تَرَكُوا مِنَ السُّنَّةِ مِثلَها، فَاحذَر المُحدَثاتِ مِنَ الأُمورِ، فإنَّ كُلَّ مُحدثةٍ بِدعَةٌ، وكُلَّ بِدعَةٍ ضَلالَةٌ، والضَّلالَةُ وَأَهلُها فِي النَّارِ)[1] انتَهى كَلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

فَاللهَ نَسأَلُ أَن يَرزُقَنا الاستِقامَةَ عَلى الرُّشدِ، وَأَن يُجَنِّبَنا مُضِلاَّتِ الفِتَنِ، إنَّهُ تَعَالَى سَميعٌ مُجيبٌ.

---

(1) «شرح السنة» للبربهاري (٦٦-٦٧).

الخطبة الثانية

الحَمْدُ لِله...

مَعاشِرَ المُسلِمِينَ:

وَلَمَّا كانَ مِن سُنَّةِ الله أَنَّ الحَقَّ وَالباطِلَ فِي صِراعٍ دائِمٍ، وكانَ النِّزالُ بَينَهُما سِجالاً أَفراداً وجَماعاتٍ، قامَ أَنصارُ الحَقِّ وَدُعاتُهُ وشَمَّرُوا عَن ساعِدِ الجِدِّ وأَخلَصُوا النُّصحَ لِمُجتَمَعاتِهِم، وَفِي المُقابِلِ قامَ دُعاةُ البِدَعِ وأَنصارُها بِرَفعِ أَلوِيَةِ المُعارَضَةِ والمُجادَلَةِ بِالباطِلِ، ناهِيكَ عَن سَوادِ العامَّةِ الذينَ لاَ يَقبَلونَ فِي تَركِ بِدَعِهِم صَرْفاً وَلا عَدْلاً.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

لَقَد شَهِدَ التَّارِيخُ -بَل تَشَرَّفَ التَّارِيخُ- بِأَن يَكونَ بَينَ دَفَّتَيهِ رِجالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اَلله عَلَيهِ، أَئِمَةٌ حِبالٌ، لَمَّا رَأَوا أَنَّ مُجتَمعاتِهِم قَد تَوغَّلَت فِيها سِهامُ البِدَعِ وَالانحِرافِ العَقَدِيِّ، قَامُوا مَقامَ النَّاصِحِ الأَمينِ، والنَّذِيرِ العُريانِ، فَجاهَدُوا بِأَلسِنَتِهِم وسُيوفِهِم وأَقلامِهِم، فَأَوضَحوا الحَقَّ بِجلاءٍ، وكَشَفُوا عَوارَ البِدَعِ وزَيفَها، فَقامَت عَلَيهِم الدَّهماءُ مِنَ العامَّةِ، يُحَرِّكُهُم فِي ذَلِكَ ويَقُودُهُم أَنصارُ البِدَعِ وأَئِمَّتُها.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

ومَعَ تِلكَ المُعارَضاتِ الغَوغائِيَّةِ والجُموعِ المُتكاثِرَةِ مِن دُعاةِ الباطِلِ وأَنصارِهِ، كانَ دُعاةُ السُّنَّةِ بِالمِرصادِ لِجَميعِ ذَلِكَ، كانَ العالِمُ بِالسُّنَّةِ يُمَثِّلُ أُمَّةً مُستَقِلَّةً، فأقامَ اُلله بِهِمُ الحَقَّ، وَرَفَعَ بِهِم رَايَةَ السُّنَّةِ، وَخَرِسَت أَلسِنَةُ البِدعَةِ والمُبتَدِعَةِ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَلَعَلَّ مِنَ الأَمثِلَةِ عَلى ذَلِكَ: مَوقِفَ الإِمامِ أَحمدَ بنِ حَنبَلٍ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى فِي مِحنَتِهِ المَشهورَةِ، وكَيفَ تَكالَبَت عَلَيهِ الجُمُوعُ، إِلاَّ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كانَ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ، وكانَت العاقِبَةُ لِلتَّقْوَى.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وعَلى شاكِلَةِ الإمامِ أَحمَدَ قامَ غَيرُ واحِدٍ مِن أَئِمَّةِ السُّنَّةِ بِإشهارِ سِلاحِ العِلمِ وَالدَّليلِ فِي وُجوهِ المُبتَدِعَةِ، فَكُبِتَ أُولَئِكَ المُبتَدِعَةُ، كَما كُبِتَ الذِينَ مِن قَبلِهِم، {**فَمَآ أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**} [سورة الزمر: ٥٠].

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَإنَّ مِن أَئِمَّةِ السُّنَّةِ الأَبرارَ، الذِينَ قامُوا بِجُهودٍ عَظيمَةٍ فِي نُصرَةِ السُّنَّةِ وَالدِّفاعِ عَنها، ومُجاهَدَةِ البِدعَةِ وَالمُبتَدِعَةِ: شَيخَ الإسلامِ ابنَ تَيمِيَّةَ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

ومَعَ هَذا كُلِّه لَم يَفتُرْ أَهلُ الضَّلاَل، بَل استَماتُوا فِي نَشرِ بِدعَتِهِم، حتَّى إذا ما استَعادَ الباطِلُ نشاطَهُ، وظهَرَ أَنصارُهُ، قَيَّضَ اُلله تَعَالَى لِهَذا الدِّينِ فِي هَذهِ الجَزيرَةِ الشَّيخَ الإمامَ مُحمَّدَ بنَ عَبدِالوهَّابِ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى.

قامَ -رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى- يَدعُو إلى تَجريدِ التَّوحيدِ مِمَّا عَلِقَ بِهِ مِنَ الشَّوائِبِ الحِسِّيَّةِ والمَعنَوِيَّةِ، فَنَفَعَهُ اُلله تَعَالَى ونَفَعَ بِهِ، وَلاَ نَزالُ نَجنِي ثِمارَ دَعوَتِهِ إلى هَذهِ السَّاعَةِ. رَحِمَهُ اُلله وَأجزَلَ مَثوبَتَهُ.

اللَّهُمَّ أَرِنا الحَقَّ حَقّاً وارزُقنا اتِّباعَهُ، وأَرِنا الباطِلَ باطِلاً وارزُقنا اجتِنابَهُ، وَلاَ تَجعَلهُ مُلتَبِساً عِلَينا فَنَضِلَّ، اللَّهُمَّ أَنتَ اُلله لاَ إِلهَ إِلاَّ أنتَ، أَنزِل عَلينا الغَيثَ وَلا تَجعَلنا مِنَ القانِطِينَ...